صديق الكلاب

أقصوصة عراقية

بقلم احمد حسن الزيات

شرب عبد الواحد [١] وسقانا ثلاثة أقداح من الشاى العطر . ثم أطلق من حنجرته القوية جشاءة طويلة عريضة كخوار العجل ، ثم حضأ النار بأنامله وشيع ضرمها فى بقية الفحم ؛ ثم أشعل منها (سيكارته) العربية وأرسل فى رفق دخانها الرقيق الأدكن . وبانت على معارف وجهه شهوة الكلام . وكان كلبى الصغير قد لاذ من قرس البرد بجانب الموقد ، فهو ينطوى وينتشر تبعاً لما يغلب على جو الغرفة من نفح النسيم أو لفح اللهب . فرأيته يطيل النظر إليه فى طرف ساكن ووجه ساهم . فقلت له مداعباً : لعلك ذكرت بالكلب حبيبتك وهى فى خبائها بين كلابها وشائها . فابتسم ابتسامة العذراء الخفرة وقال : الحمد لله ما ذكرت على فقرى حياة البر [٢] مذ هجرته ، ولكننى ذكرت رجلاً كان فى بغداد يدعى (أبا الكلاب) . فسألته وما حديث أبى الكلاب هذا يا عبد الواحد ؟ فلمع فى عينيه البشر ، لأن سروره كان فى أن يتحدث وتسمع . وذهب به شىء من التيه ، لأن شعوره بأنه يعلم ما لا نعلم يرفعه قليلاً فوق قدره ؛ لذلك تراه عند الحديث يجلس جلسة النظير ويلهج لهجة الأمير ويقرر تقرير العالم

قص علىّ هذه الأقصوصة وهو منها على يقين جازم . وما كان أسرنى وأسرك لو استطعت أن أنقلها إليك بلغته الجميلة التى تأخذ من لحن بغداد ومن لحن البادية . على أننى سأحاول ما أمكنتنى القدرة أن أترجمها ترجمة صادقة تكشف عن أثرها فى نفسه وفعلها فى نفسى

* * *

كان فى بغداد منذ خمسين عاماً أسرة كريمة تعتز بنسب العرب من جهة الأب ، وتتصل بسبب الترك من جهة الأم ، فهى مزاج معتدل من عقليتين متباينتين لا يجمع بينهما غير الدين . والدين فى مثل هذه الحال يكون أوثق عقداً وأمتن أسباباً لقيامه مقام الجنسية الجامعة والعصبية القريبة . فالوالدان صالحان تقيان لا يفهمان من العروبة إلا النبوة والقرآن ، ولا من التركية إلا الخلافة والسلطان ، ولا يعرفان عن دار السلام وفروق إلا أنهما بلدان فى وطن واحد . والولدان جميلان بارّان يكبر الذكر منهما الأنثى بخمس سنين ، وقد درجا معاً من مهد الفضيلة ، ثم ترعرعا فى حنان الأبوين على كفاف من العيش يؤتيه متجرٌ غير نافق

لم يشغل عبد الواحد باله كثيراً بتفصيل حياة هذه الأسرة الصغيرة . فكان كلامه عنها مرسلاً مجملاً لا يحلل طبيعة شخص ، ولا يحدد تاريخ حادث ، ولا يعين مكان منزل ؛ حتى أسماء الأب والابن والبنت لم يجد فى ذكرها ما يفيد الحديث ! فهو يحذف ما يزعمه فضولا ويسير قدُما إلى هيكل الموضوع وعقدة الحادث ، فيقول إن الغلام

(١) عبد الواحد رجل بدوى كان يقوم على خدمتى وأنا ببغداد (٢) يريد الصحراء

كان عمره اثنى عشر ربيعاً حينما صحب خاله إلى الأستانة . والأستانة يومئذ كانت منتجع الخواطر ومهوى القلوب الطامحة إلى السطوة أو الثروة أو العلم . فهل كانت هجرته إلى دار الخلافة تثقيفاً لنفسه، أو تخفيفاً عن أبيه ، أو مساعدة لخاله على تدبير متجره وماله ؟ كل ذلك يجهله راوى الحديث ، فما يعلم إلا أنه شدا شيئاً من العلم فى إحدى مدارس القسطنطينية تحت عين وليه وعونه ؛ ثم اندفع فى غمار المدينة الصاخبة يداور الأمور ويتلمس المكاسب ؛ ثم أوغل فى مدن البلقان وشعاب الأناضول ، حيناً فى خدمة الجيش ، وحيناً فى طلب العيش ، حتى انقطع علمُ ما بينه وبين أهله .

كان الغريب النازح يهاجم الأخطار فى كل فج ، ويصارع الأقدار فى كل لج ، وكل همه أن يجمع من المال ما يضمن له ولأسرته خفض العيش فى ظلال بغداد الجميلة . فلما ملأ الدهر يديه بما أمل كان وا أسفاه ربيعه قد أدبر وربعه قد أقفر وحلمه قد تبدد ؛ فإن والديه البائسين قد ألح عليهما من بعده الحزن والضر والفقر حتى انطفأ سراجهما فى حولين متعاقبين بعد انقطاع خبره ببضع سنين ، وأما البنية اليتيمة فقد حنا عليها بعض ذوى المروءات من أهل البيوتات فضمها إلى حرمه ، وواسى يتمها الحزين بعطفه وكرمه

عاد المهاجر إلى وطنه يحمل فى جيبه المال وفى قلبه الأمل ، فما وطئت قدماه ثرى العراق الذهبى حتى ازدحمت الذكريات على خاطره ، ومرت الحوادث المزعجات أمام ناظره ؛ ولكن شعوره بلذة العودة إلى الأرض التى أبصر عليها الدنيا ، والسماء التى تقبّل منها الروح ، والهواء الذى رف عليه بالصبا ، والماء الذى نضج قلبه بالنعيم ، والأسرة الحنون التى يراه إليها الشوق ، والمستقبل الباسم الذى ينتظره فى بغداد ، قد شعب فؤاده وشفى كبده ومسح ما به

عرف المحلة والدار بعد لأيٍ لطموس المعالم القديمة ؛ ثم قرع الباب بيد مرتجفه ، فإذا المالك الجديد يخرج إليه : فأقبل عليه المسكين لهفان ضارعاً يسأله : هنا كان مهبط نفسى فأين أبى ؟ وهنا كان مسقط رأسي فأين أمى ؟ وهنا كان لى مهد وأخت وملعب وجيرة ؛ فقل لى بربك يا سيدى أين تحمّل بكل هؤلاء القدر ؟ . وكان بين المسئول والسائل حوار قصير عرف منه البائس أن ريح المنون قد عصفت بأهله . فارتد إلى الفندق لا يملك دمعه ولا قلبه . ثم قضى حيناً من الدهر ذاهب القلب يكابد غصص الكرب ، ويعالج مضض الهموم ، حتى رأم الزمان والإيمان جروح صدره

* * *

وقع فى نفس الوحيد الحزين أن يتزوج ليعيد إلى سجل الوجود اسم أسرته ، فاقترحت عليه جارة له عجوز أن تخطب إليه فتاة يقولون إن بينها وبين بنى فلان عاطفة رحم ؛ ويؤكدون أنها تنزع إلى عرق كريم لطبعها المهذب وجمالها المحتشم . فاطمأن قلب الخطيب إلى رأى الخاطبة ؛ واختلفت العجوز بينه وبين ولى الفتاة حتى تم الوفاق وسُمى الصداق وعينت ليلة الزفاف

زفت العروس إلى زوجها ، فبهره ما رأى من جمال ، وأحس من ظرف ، وسمع من أدب ؛ فافتر فى وجهه السرور وحمد الله على حسن توفيقه . ثم انقضى شهر العسل على خير ما يجد زوج من زوجه . وفى ذات ليلة تجاذب العروسان أطراف السمر وشقفا بينهما الحديث ، حتى أفضى إلى علاقتها بوليها فلان (بك) ، فأحب الزوج أن يعرف درجة القرابة

بينهما ، فغضت الفتاة من طرفها ، وشاعت حمرة الخجل فى وجهها ، وقالت فى صوت خافت متهافت من الخزى والخوف : « الحقيقة أن ليس بينى وبين هذا الرجل قرابة ! وإنما هو نبيل محسن آوانى وربانى بعدما فجعنى البين فى أخى ، والموت فى أبى ، وأنا يومئذ فى حدود الثانية عشرة . ثم تتابعت الأسئلة من الزوج ، وتسارعت الأجوبة من الزوجة ؛ وكان كلما انجاب عن خبايا الغيب حجاب امتقع لونه ، واقشعر بدنه ، واشتد وجيب قلبه ؛ وكانت هى كلما رأت منه ذلك نسبته إلى انخداعه فى أصلها فمضت تفصل المأساة وتصور الفاجعة بالكلام والدمع ، عسى أن تعطف قلبه على مصابها ، فلا يفكر فى طلاقها وعذابها . ولكنها لم تكد تلمس الحجاب الأخير حتى رأت زوجها قد قفّ شعره وانتفخ سَحره وارتعدت أطرافه ، ثم انفجر صارخاً يقول : واويلتاه ! وامصيبتاه ! لقد تزوجت أختى ! ... ثم خر مغشيا عليه . فلما تاب إليه بعض رشده نظر إلى أخته فوجدها فاقدة الوعى ، فتركها وابتدر الباب وخرج مسرعا لا يلوى على شىء ولا يلتفت إلى أحد !

* * *

خرج طريد القدر من بيته خروج (أوديب الملك [1]) من قصره ، ثم هام فى الطرق الضيقة المتشاكة يسأل الرائح والغادى عن مفتى بغداد . فلما أدخل عليه باح له بسر الخطيئة ، فهول عليه التركى بعقابها ، وبالغ فى جرائرها وأعقابها . ثم أفتاه بعد الاستشارة والاستخارة والرؤيا أن الله لا يغفر هذا الجرم إلا إذا صدف عن متاع الحياة ، وخرج عن أثيل الملك ، واستتر بأخلاق الثياب ، وقضى بقية عمره فى جمع الخبز للكلاب الشوارد !

أذعن الخاطىء البرىء لحكم الفقيه الأحمق ونزل للزوجة الأخت عما يملك ، وارتدى طمراً من غليظ الكرباس ، وجعل على عاتقه مخلاة ، ومضى يقرع كل بيت ، ويقصد كل مطعم ، فيجمع الفتات والخبز ثم يقف باليدان فيقسمه بالسوية على من أجاب الدعوة من كلاب الحى

لم يمض غير قليل حتى عرفه الناس وألفه الكلاب ، فصار يمشي فى الأزقة وخلفه منها قطيع ، وينام فى العراء وحوله من شِدادها حرس مطيع ، وتحين الوجبة العامة فلا تجد كلباً طليقاً فى بغداد إلا أجاب نداءه ، وتناول من يديه المحمومتين غداءه . ولكن الوالى رأى على طول الزمن أن يدى أبى الكلاب على رعيته عافية وربيع . فسمن هزيلها ، وكثر قليلها ، حتى اختنق بلهاثها النهار ، وصُم بنباحها الليل ، وأصاب الناسَ من عضاضها وأمراضها شر كبير . فأقام فى ظاهر المدينة حظيرة واسعة ، ثم أمر الشرطة فصادوا الصوارى وألقوها فيها . فكان أبو الكلاب على عادته يجمع الطعام والعظام ثم يذهب إلى ضيوف الحظيرة فيطعمها ويسقيها ، ثم يتهالك على الأرض من اللغوب فيرقد مكانه حتى الصباح

وفى ضحوة يوم من الأيام أولم الوالى لأسراه وليمة السفاح فما نجا من بعدها لاهث ولا نابح . وجاء أبو الكلاب فرأى ألافه الخلصاء على أديم الأرض صرعى ، لا يتملقن بعين ، ولا يمصمصن بذنب ! فعظم على المسكين أن يرى مثال الصداقة يموت ، وشبح الجريمة يحيا ، فتساقط بجانب السور مهدود القوى ، صريع اليأس ، ولبث مكانه لا يأكل طعاماً ولا يذوق مناماً حتى لحق بربه .

الزيات

(١) فى الأساطير اليونانية أن أوديب الملك قضى عليه أن يقتل أباه ويتزوج أمه ، فلما نفذ القضاء على غير علمه فقأ عينيه وخرج من طيبة هائماً تقوده ابنته انتيغون